



تصريح السفير الروسي في إسرائيل، أتاتولي فيكتوروف، في 30 يوليو/تموز، مثير للاهتمام، في الوقت الذي تقود روسيا في سوتشي محادثات السوريين من أجل التسوية، وطرح نفسها في سورية صانعة سلام. قال السفير على القناة الإسرائيلية العاشرة، مطمئناً إسرائيليين إن أمن إسرائيل أولوية روسيا في سورية. وهذا ما لم يشكَ فيه أحد، منذ بداية الثورة السورية والتدخل الروسي فيها، سواء من خلال تعطيل مجلس الأمن وقراراته التي شاركت موسكو نفسها فيها، أو من خلال تدخلها العسكري المباشر منذ العام 2015، بعد أن أيقنت أن النظام السوري على طريق الانهيار، ومعه حشود المليشيات الإيرانية.

منذ ذلك الوقت، لم تكُن علاقات الطرفين، الروسي والإسرائيلي، عن التحسن على حساب جميع الأطراف الأخرى. وقد تجاوز التفاهم اليوم بين رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، والرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، أي تفاهم مع أي طرفٍ من هذه الأطراف، بما فيها النظام السوري الذي من المفترض أن روسيا جاءت لدعمه بالدرجة الأولى. وتحول التنسيق بين الروس والإسرائيليين، لتجنب الصدام بين سلاحي جو البلدين في سماء سورية، إلى شراكة إقليمية وتحطيط مشترك لمستقبل سورية. في هذه المعادلة مكاسب بوتين أساسية. فهو لا يضمن، بتحالفه مع الدولة الأكثر دلالة في العالم، والمعفاة من احترام أي قانون أو التزام دوليين، التغطية السياسية الكاملة لتفرّده بتقرير مصير البلد المحتل فحسب، لكنه يكسب إلى جانبه حليفاً مهماً على الأرض، وفي الميدان العسكري تجاه جميع الأطراف الأخرى، بما فيها طهران التي اعتتقد وقتاً أن لديها ما يكفي من النفوذ والقوة متعددة الأشكال، الناعمة والخشنة على الأرض، لمنافسة موسكو على الأسبقية في تقرير مصير سورية. هكذا يستطيع السفير الروسي، ورئيسه، من دون الشعور بأي حرج، أن يقول إن من غير الواقعى إخراج إيران من سورية كلياً، فالروس بحاجة لمليشياتها قواتٍ بريةً على الأرض، لكنه لن يمنع إسرائيل من الهجوم على موقعها وتدميرها .

أما مكاسب نتنياهو فهي لا تحدّ، وبعد أن ضمنت لنفسها إطلاق يدها تماماً في فلسطين من قبل الإدارة الأميركيّة الجديدة بما سميت صفقة القرن، تقدّم مع روسيا إلى موقع القوة الإقليمية التي لا يمكن تجنب رأيها ومصالحها في أي قرار يخص المنطقة بأكملها. تحلم إسرائيل، من خلال الوضع الاستراتيجي الاستثنائي الذي حصلت عليه بعد تدمير سوريا، ومن قبلها العراق، وانسحاب مصر، ومرض الخليج، وقبل ذلك بعد الانحسار الإجباري في نفوذ إيران، أنها تستطيع، بالتفاهم مع روسيا والتعاون معها، أن تنهي حقبة الحرب العربية الإسرائيليّة الطويلة لصالحها، وتحقق جميع المشاريع الاستيطانية في فلسطين بأكملها والجولان، وتخترق أي حصار آخر، سياسية أو اقتصادية. التفاهم الاستراتيجي الروسي الإسرائيلي في سوريا والمنطقة صفة قرن ثانية، تضاف إلى صفة القرن الأميركيّة التي حصدت تل أبيب أول ثمارها بضم القدس برعاية أميركيّة.

عندما يكون أمن إسرائيل أولوية روسية في سوريا فهذا يعني أنه أولوية للأسد الذي يعمل تحت أوامر الروس وفي حمايتهم، ولا يستطيع أن يستمر من دونهم. لكن، يعكس ما قد يظنه بعض العرب والسوريين، أو ما يخطر في بالهم، لا ينبغي أن يعتقدوا أن الأسد مستاءً من هذا الأمر، أو أنه يشعر إزاءه بأي حرج أو إهانة. إنه يرى فيه استكمالاً للوعد الذي قطعه على نفسه بحرق سوريا والمنطقة، إذا قرر السوريون "التامر" ضده. العمل العلنيالي اليوم مع إسرائيل من خلال الغطاء الروسي مناسبة أخرى لمعاقبة السوريين الذين عارضوه وتجروا على مواجهته، ودليل إضافي على قدرته تجاوز جميع الصعاب، واستعداده الدائم لتحدي أعدائه في الداخل والخارج، خصوصاً العرب، والتشفّي منهم وإذلالهم. وبالإضافة إلى ذلك، سوف يوفر عليه هذا الوضع الجديد الحاجة إلى خطابات المقاومة والممانعة الكاذبة وبهلوانيات القومية والاشتراكية والتطوير والتحديث التي كان تثقل على كاهله. وسوف يعزّز موقفه أمام المنظمات الدوليّة، والدول المترددة في إعادة تأهيله، ويحرّره من الخوف من احتمال الاضطرار إلى الرد على تقارير المنظمات الدوليّة، والتعريض، في يوم ما، إلى المساءلة والمحاسبة بما ارتكبه من الجرائم التي وصفتها منظمات حقوق الإنسان الدوليّة جرائم ضد الإنسانية.

عندما تكون معك روسيا وإسرائيل في الشرق فأنت تملك العالم، وليس عليك أن تخشى أحداً. هذا ما أثبته مثال الأسد خلال السنوات الثمانية الماضية، والذي أبقاء حاكماً، بصرف النظر عن مضمون الحكم وشكله وظروفه. وهذا كل ما يطلبه.

هل يجيب هذا كله أو يقدم بعض عناصر الإجابة عن السؤال الكبير والدائم الذي لا يكفيّ السوريون، على مختلف أطيافهم واعتقاداتهم، عن طرجه: ما الذي يفسّر هذا التواطؤ الشامل على ما يجري في سوريا من استهتار لا يقارن بالمواثيق والشرائع والقرارات الدوليّة، وتحدي سافر لأبسط معايير الإنسانية، والتلاعب بحياة البشر والمتجارة بأرواحهم وأعضائهم، وزجّهم في معارك وحروب إبادة جماعية، والصمت المطبق على المجازر التي كانت آخرها قبل أيام المجازرة التي راح ضحيتها 246 شهيداً بسبب رفض وجهائها وشيوخها إرسال شبابهم للقتال ضد مواطنיהם في مناطق أخرى، وما ينشره النظام، من دون أي تفسير أو حرج، من قوائم الموت التي تعني الآلاف من المخطوفين الذين قضوا تحت التعذيب، بتعليل واحد، هو الجلطة القلبية أو العوارض الصحّية، من دون تهم ولا محاكمات ولا أي أثر للضحايا، ومن دون أن يثير ذلك أي رد فعل سياسي، لا من الدول، ولا الأحزاب الديمقراطيّة، ولا الرأي العام، ولا حتى المنظمة الدوليّة؟

كان السوريون يعتقدون أن أمن إسرائيل أولوية في سياسة واشنطن المشرقيّة، واكتشفوا، بعد ثورتهم المغدورة، أنه أولوية أكثر في سياسة موسكو البوتينية. والآن بعد التصرّف الروسي، وبجهود محور الممانعة والمقاومة في طهران وضاحية بيروت والقرداحة. صارت، بحكم الواقع، أولوية في السياسة السورية ذاتها، وربما تتحول قريباً إلى أولوية في السياسات الدوليّة تفوق أولويات حفظ السلام العالمي، وتحقيق التنمية ومكافحة الفقر والحدّ من الجريمة والاتجار بالمخدرات والمخاطر البيئية وانتشار الأوبئة، ومختلف التهديدات القائمة والمحتملة. يشعر السوريون في محنتهم العظيمة أن بشار الأسد لم يكن وحده الكارثة، لكنه كان الأداة المنفذة لجريمة خطط لها وشارك فيها، يوعي أو من دون وعي، عالم كاملٌ فقد

روحه، وقبل الاستسلام لمبدأ القوة المتفوقة، وتحالف الجريمة مع انعدام المسؤولية .
لم يعد الاستمرار في المقاومة، ورفض تمرير الجريمة والتسليم بها، شرطا لاستعادة سوريا إلى الحياة فقط، وإنما أكثر من ذلك لإعادة أحياء الضمير العالمي المطعون في الصميم.

المصادر:

العربي الجديد